إلى أي حد تحاكي كتابات مكسيم غوركي نمط حياتنا ؟

موسى غافل الشطري

كلما تأملت ملياً بكتابات مكسيم غوركي تراءى لي ذلك الرجل الذي قست الحياة الروسية على ملامحه، كأنه تجرع مرارتها حد الثمالة. وكأن تلك الملامح قد قدت من حجر، تكمن في أعماقها حرارة دماء قلبه العظيم . و ينكشف ذلك كله عبر ما يعكسه عن أطفال القمامة والملاجئ شبشه الغيران ، في أرض صلدة موحلة إلى حد التعرية للحياة القاسية لتبصم ذاكرتك كما لو كنت قد وطأت تلك الأصقاع و توغلت عبر السهب القصية ، وقد تجمدت أطرافك و ارتجفت أوصالك من صقيعها .

إن مكسيم غوركي جسّد بوضوح صادق ما خاض من حياة معذبة لا تعرف الراحة ، وقد توسمت شخصياته بنمط من الملامح التي يصعب على الآخرين تحريها . حتى أولئك القساة من اللصوص و المشردين و المشردات . و رؤساء العمال الذين يشرفون على تحريك العمل بنشاط و همة . مثل العمل في الممالح، فإن غوركي سرعان ما يتجلى لديه ما يسود لدى تلك الجموعات روح التسامح و التضحية و التعليقات الساخرة ، إلى حد الضرب المبرح، دون أن يغيظ عاملاً ، ذلك الغيظ إلى حد قهر الإرهاق بالعفو عن أية زلّة قاسية يبديها مشرفهم .

إن غوركي حينما يرسم تلك الحياة يلتزم جانب الحياد حتى مع أعدائه، كأن القسوة قاسمهم المشترك . حتى مع غلاظ القلوب . إنه يتحرى عن ذلك الكامن خلف تلك القسوة من الجانب الإنساني و التعاطف الذي يفضح زيف القسوة . وهذه هي إنسانية هذا الكاتب العظيم حادي مسيرة المعذبين ، الذي يتراكم غبار السنين على مؤلفاته الآن . ويغيب عن الذاكرة ، وسط سيل من الإطراء و الاستشهاد بالكتاب الآخرين الذين يتخندقون في عقدة الغموض الذي لا وجود لمبرر يتيح المتعة للمتلقي العادي وغير العادي.

وغالباً ما يهتم بذلك النمط من تلك الشرائح المعدمة و اللصوص و الجانحات و الأطفال المشردين ، و يسبر أغوارهم . و يبحث عن ذلك النور الذي أخفته قسوة الحياة اللاّ إنسانية .

من الواضح جداً إن غوركي قد بصم ذهنية متلقيه بمشاهداته عبر حياته النكدة بمشاهداته التي لا تمحى من الذاكرة.

فمكسيم غوركي كتب الرواية و القصة القصيرة و النص ، و كتب بامتياز على ضوء الواقعية الجديدة و الغرائبية المعبرة عن عذابات المواطن الروسي . وانحاز بقوة إلى جانب الإنسان.

ووظف مفاهيمه الواعية لهذه الغاية. و إني لأعجب من هذا الصمت الذي يلف كتابات هذا الأديب العملاق. مع أنه أكثر الكتاب الذين تعمقوا في رؤيتهم . مع أنه أكثر الكتاب الانسانيين الذين تعمقوا في رؤيتهم حتى السيكولوجية لشخصيات أبطاله و مجال و ظائفهم ، و الأبعاد السلوكية لهم .

يتوضح طابعه المتميز في مؤلفاته التي قرأتها مثل (الأم) و (في معترك الحياة) و (غورديف) و (ذات ليلة من ليالي الخريف) و (الأصدقاء الثلاثة) و غيرها .

كان غوركي يحلم بمجتمع عادل يكون فيه الإنسان (أثمن رأسمال في الحياة) مهما كانت قومياتهم و طبقاتهم ، مرفهين عذبي العشرة، ترتسم البسمة على وجوه طافحة بالحبور .

و لعل ما كتبه غوركي عن معاناة مواطنيه ، من الكادحين و المسحوقين ، يتطابق إلى حد بعيد مع واقعنا العراقي الآني ، رغم تفاوت الطقس و مرور العقود من السنين .

وفي مؤلفاته تلك ، كان هو المنوّر و المحرّض و الفاضح و المجسد لمحنة الإنسان . وما زالت مؤلفاته تكتظ بالحيوية و التجدد و تتواءم مع ملفات الحياة العراقية المعيشة .

و ما دمنا نكتب هذه المقارنة مع مجرى حياتنا ، فلا بأس أن نقارن مع مايجري التعامل به مع قضايا شعبنا لدي نخبنا من الأدباء و الشعراء الذين ابتعد الكثير منهم عن القضية المركزية التي تشغل المتلقي العراقي و يريد أن يقرأ بشغف و لذة عما يشغل باله وأن يزداد غنى بوعيه.

من المؤسف حقاً ـ وهذا رأيي كمتلقي متابع ـ بدل أن تهتم الأغلبية الساحقة من كتاب القصة و الرواية والشعر و النقد عندنا بمحنة الإنسان العراقي، باعتباره القضية الإنسانية المثارة في بلدنا المعذب. و الذي يعتبر سلعة نادرة في لقطات المراسلين و المصورين ، في المشاهد النادرة الفريدة، والذي يطل علينا من شاشات التلفاز و نشاهده في العين المجردة في كل آن ، صباحا و ظهراً و ليلاً وفي الوقت الضائع . و لعلي لا أتجنى إذا قلت : ـ إن من العوامل الرئيسة لجفوة المتلقي واضمحلال الرغبة حتى في تدوال النقاش على نحو إيجابي ، هو هذا المتاه في إطراء ما يجري في الساحة الأدبية . وكي لا أتجنى لا على العموم .

نشاهده ينقب بالقمامه ، أو يُقْتل. أو يمزق بالمتفجرات ببرودة دم . أو يسكن في بيوت من الصفيح . وهذه حالات لم نألفها حتى في العهود السوداء الماضية . لكن بعض كتاب النص الأدبي العراقي المعاصر يحيدون عن ذلك و يغمضون عيونهم ، و يترفعون عن أن يهبطوا من علياء نخبويتهم ، إلى مستوى المتلقي العادي ، و يقتسم معه رغيفه المر . بل ظل معظم كتابنا من شعراء و قصاصين و كتاب رواية أو نقد يطالبون يتمسكون بحجة : أن يرتفع المتلقي العادي إلى برجهم النخبوي ، وهم غير معنيين أن يهبطوا بإنجازهم إلى القاع . المتلقي الذي قد يرسل أبناءه للتحري في القمامة عن مخلفات تباع أو تؤكل، لكي يكون على مقدرة أن يرتفع إلى مستوى استيعاب ما يشفر . في وقت ما عادت هناك حاجة للتشفير ، بل طرح النص الذي يدعو المتلقي العادي أن يقول بفرح و ارتياح : ـ إنني أستطيع أن أكتب مثل هذا .

وأنا لا أقصد هنا الهبوط بالنص إلى مستوى الإبتذال، بل بذل أقصى جهد لكي يكون هذا النص قريباً إلى مذاق المتلقي و التلذذ به ، لدينا أمثلة كثيرة من هذا القبيل . مثل حمزاتوف و بابلو نيرودا و السياب و محمد على الخفاجي والشعراء و السرديين العظام .

فالرحيل عبر منجزه إلى قمة الأبراج العالية كبرج دبي سيبدو هو ضئيل و كذلك الذي ينظر إليه . إن ذلك لا يجدي نفعاً لكي يعطي موقفاً دقيقاً تعاطفياً متقصياً عما يتركه الهم و شحة الحاجة لجلاّس الأرصفة أو المرأة التي انحرفت سلوكياً لافتقاد اللقمة ، أو أي مصير مذل .

لذلك ظل الشاعر و السارد أسير انكبابه على الكتابة لإرضاء ذاته و النخبة ، و يعصي استنكافاً و ترفعاً عن الشعب الكادح و قضية بؤسه . ومستواه المتدني في تقبل كتاباتهم المتشرنقة بالغموض، الذي غادرتنا ضرورته . إنه يبدو للبؤساء مجرد0(تراكم كمي دون تغير نوعي) .

إن هذا يذكرنا بأرستقراطية الأدب ، إن صح التعبير، وترفعه عن الطبقات الدنيا . و كأننا لم نتعايش مع الظروف المماثلة و المعاصرة لما دُوّن في (المعطف) لكوكول و (طريق التبغ) لأرسكين كولدويل ، و (عناقيد الغضب) لجون شتاينيك و(النخلة و الجيران) لغائب طعمة فرمان .و (المومس العمياء) لبدر شاكر السياب .

لكن هذا السيل الجارف الهابط يطغي على النوعية الأفضل و يتلاشى في هذا الخضم و يهفت و يتحول إلى رماد بارد .

أنا شخصياً ـ كمتلقي ـ عندما أقرأ بعض النصوص لكتاب مرموقين في الوسط المثقف ،خاصة في الشعر ـ الأغلبية الساحقة منه ـ وبعض كتاب النقد وولعهم بالمصطلحات التي لا أحتاج ، أن أقضي وقتاً لتدولها، فإنني أصاب بإحساس كوني قاصراً عن الفهم . وأني غير مؤهل لامتلاك القدرة لكي أفهم ما يكتبون . إنها أُحجية مغلفة بقشرة صلدة يصعب اختراقها و يصعب تذوقها . و بالتالي يأسف المتلقي لقضائه الوقت ا لضائع مع هذا اللغو أو الإنجاز العصي و بالتالي لا يجني القارئ غير الإحباط و تدني محاكاة النص.

و من المؤسف أن أخرج بانطباع : إن هذا ((المبدع)) لم يستطع أن يوصل رؤية منجزه إلى مقدرة التقبل ـ و هذه حالة عجز لدى أحد الطرفين ـ سواء لي أنا كمتلقي أو كاتب قد ينطبق عليه حكاية الملك الذي خدع بارتداء ملابس و همية فخرج عارياً ولم يتجرأ أحد أن يدلي بما يرى .

فصار الشعر المشفر ، مهما يكن كاتبه ، في وقت انتفت حاجة التشفير ، مجرد لوحات مبهمة خادعة تستهين بالمتلقي و تحسسه بالعجز و الإخفاق على التذوق و الفهم .و ربما هي حالها حال قطعة قماش بيكاسو التي يمسح بها فرشاته فجعلها إنجازاً إبداعيا ، وقد أحدث ضجة في الأوساط المعنية بالفن ، ولا ندري هل كانت ضحكاً على الذقون أم له فيها شؤون: أن كل ما يخرج من فرشاته مقدس .

إن حراجة المرحلة هذه التي تكبلنا بقيودها و برعبها و مجهوليتها ، لا تحتاج إلى ذلك . بل تحتاج إلى ناشطين يعودون من جديد إلى الأدب الإنساني الملتزم بكل وضوح ، الذي يتقاسم رغيفه مع المواطن العادي و النخبوي على حد سواء كما فعل العظماء. وهنا تكمن عظمة صانع النص . فعندما يغريني غوركي أو هذا الشاعر أو السارد أن أتلذذ بمنجزه ، و العودة إليه للتمتع بما يمتلك و بما يمكنني من اكتشاف الجديد فالجديد ،من خزين لا ينضب متعدد الحلل ، آنذاك أحس باحترام و اعتزاز بهذا المبدع و سوف لن أتركه فريسة للغبار ، بل ستتداوله الأيدي الأخرى و تستمر المناقشات بشأنه .

وبما أن الأدب ينبغي أن يكون انعكاساً لقيم اجتماعية ترتبط بشكل فعال بتطور المجتمع و لا تشذ عنه، لأن الشذوذ يمسخ صدق رؤيتها ، لذلك يضم الأدب قيمة الأخلاقية. و من خلال ذلك تعددت المقتربات النقدية لمراقبة مسيرة النص الذي هو ـ كما أشرنا ـ انعكاس للحياة المحددة من حيث تدرجها المجتمعي.

فالمقياس الأخلاقي لم تكن مثله ثابتة بل متحركة و خاضعة للتغير لكي تساير تطور المجتمع بتأثير علاقات الإنتاج .

لذلك يستوجب أن تكون كتاباتنا الأدبية مرتبطة ارتباطاً أميناً بطابع حياتنا المحددة موضوعياً .، وليس رسما لحياة غير منطقية ، مستنسخة من محيط لا يتطابق مع واقعنا. ولا ضروف حتمية لممارستها لدينا ، ولا نملك رؤية واضحة عنها لكونها مجرد عطاء مستنبط من حياة مستوردة الملامح و الكساء . فذلك تشويه لما ينبغي أن يكون مستوى تفاعله مع ذوق المجتمع ، له طعمه و مذاقه و مؤثراته . أي لم يكن أُمنية لا تتسم بتناقض مع مرتكزات الواقع المجرب على وفق معطيات حياتنا المحددة موضوعياً .

فمرحلتنا الحالية .. قلة من الكتاب من لم يجرفهم السيل من أدب الضياع و الغارق في ضبابية الغث و الذي يسبب كثرة من العثرات لمسيرة الأدب الأصيل .

و يمكن أن نحدده بمفهوم(استيراد البالات) . مع أننا نؤمن أنها مرحلة عابرة ستختفي كظاهرة حتّمت على الكثير منا أن يسايرها و قد يكون لها مبرراتها بسبب تداعيات الهجرة .

ولذلك نحن بحاجة إلى وقفة تأملية و تقييمية ، ليس لما نكتب ـ و الذي هو مسيرة في متاهة ـ بل ينبغي أن ننشئ أدباً جماهيرياً تحريضياً جريئاً غير خجول لدعم و تقويم التحولات المتعثرة كي تنهض . كذلك توظيف كل المنجزات لصالح الأكثرية و تشذيب جشع و استئثار الأقلية. ومتى ما استطعنا أن ننجح في ذلك ، آنذاك علينا أن نفكر ـ عند توفر الظرف الموضوعي في رفع مستوى متلقينا و تحفيز تذوقه ، لا الحكر لصالح النخبة، بمعزل عن أصحاب المصلحة الحقيقيين ، وأعني الجماهير الشعبية .

فهم مطالبون لإعادة النظر فيما يكتبون .و لسنا بحاجة إلى أدب الصالونات ،أن تسحبهم قدراتهم الإبداعية ، ذات الضفاف الواسعة فيرمي بهم الغرور إلى المتاهات .

من أجل ذلك : كنت أؤكد على ما أنجزه غوركي ، الإنسان القريب إلى حياتنا التي خاض مثيلاً لها .و اخترت حكاية من حكايات (إيزرجيل) . هي حكاية البطل (دانكو) التي يمكن أن نسميها بذات الواقعية التي سلكت طريق التغريب ، إن صح التعبير .

لقد جسّد غوركي بقوة حاجة الشعب الروسي الكادح إلى قائد جريء مبدع لا يتردد ولا يذعن للإحباط . محب لشعبه . مقدراً لمبررات اليأس التي تخلقها المعوقات و المصاعب الجسيمة التي من الصعب قهرها. قائد محب إلى شعبه إلى حد التضحية بالنفس .

أي ليس ذلك البطل الذي كتب عنه تروتسكي في كتابه (الثورة الدائمة) الذي قاد شعبه ضد الملك الظالم ، ثم حين انتصر ، ولم يجد القيم المتحلية بالأخلاق المضيئة النابذة للقيم التي توارثها الملك السابق، وهي قيم ترسخت عبر مراحل العبودية و من ثم الإقطاعية .

اضطر هذا المنقذ الثوري أن يسير على نفس النهج للملك الظالم . و بالأخير لم يحر ر الشعب ، بل خضع لما مارسه الملك السابق من عرف اجتماعي طبقي التي هي امتداد للقيم المندثرة . و بدأ بتطبيقها فظلم شعبه الذي سرعان ما ثار عليه و قتله . وقد حدث هذا لدينا أبان الحكم البعثي بترويج المفاهيم العشائرية و انسحابها على المدنو الكثير من المتعلمين، لافتقارهم لبرنامج واضح . وكذلك الضياع لسبع سنين الذي دخلت فيه القوى التي حكمت بعيد سقوط النظام السابق .

وعودة إلى ثائر تروتسكي فلإنه لم يجد أمامه برنامجاً ثوريا أو قيماً جديدة تدعم حقوق المنتفضين و تضيء الطريق له نحو آفاق إنسانية يبشر بها أو توفر الرخاء لشعبه . وهنا يكمن الفارق بين دانكو و الفلاح المنتفض لقيادة شعبه و الإطاحة بالملك الظالم ، مع أنهم ينحدرون من طبقة اجتماعية مضطهدة واحدة .

حكاية دانكو الاسطورية ينبغي إضاءة جوانبها :

شعب أو قبيلة شديدة البأس ، لا تخضع لجائر . تطوقها العديد من القبائل المعادية . و على مرور الأعوام تضعف هذه القبيلة و تحاصر ، فتضطر أن تنسحب نحو غابة كثيفة الأشجار مترامية الأطراف للاحتماء من أعدائها . وهو موقف دفاعي، له أبعاد تراجعية . إذا لم يتعزز هذا التراجع بتكتيك يخدم بعدا ستراتيجياً للخلاص .. فإنه يتحول في البعد المرئي أو غير المرئي إلى نتيجة خاسرة تؤدي بالقبيلة إلى الهلاك.

يقول غوركي في سرده لهذه الحكاية عن أعضاء القبيلة نقلاً عن الراوية (إيزرجيل) و هي عجوز جريئة لا تتردد عن رغباتها ،جربت الحياة بحلوها و مرها: (و هكذا أنفقوا الليالي في تفكير فاجع حزين وسط دندنة الغابة و نتن المستنقع ، وفيما كانوا يجلسون على هذا النحو، كانت الظلال التي تنشرها نيران مخيماتهم تتواثب حولهم في رقص صامت .

وبدا لهم و كأن هذه الأشباح الرقصة لم تكن ظلالاً. ولكن أرواح الغابة و المستنقع الشريرة تحتفل بانتصارها . و هكذا قعد هؤلاء القوم و استغرقوا في التأمل و التفكير . ولكن لا شيء يبلي

أجساد الناس و أرواحهم ـ لا العمل الشاق و لا النساء ـ بقد ما تبليها الأفكار الفاجعة , فلا عجب إذا ما ذوى أولئك الناس و ضعفوا من أفكارهم) .

إن ما يوحي به غوركي هو حالة النكوص و التهيب و التردد و الخوف من اتخاذ قرار مهما كانت المصاعب و التضحيات الجسيمة للانتقال الذي يجب ، من حالة الأفكار إلى حالة المضي قدما نحو الخلاص مهما كانت التضحيات ، ألانتقال من السلبية المحبطة و القدرية إلى المعالجة الإيجابية المنقذة و إلاّ لظلوا يتمزقون و يتهاونون و يموتون موتاً بطيئاً.

يقول النص : (الخوف و الذعر و كلمات الجبن و التخاذل ، كل ذلك اجتمع و قادهم لكي يخنعوا أذلاء صاغرين أمام أعدائهم المحيطين بهم من خارج الغابة " الغابة هي المحنة المحبطة و التهيب عن اتخاذ قرار حاسم، كاتب المقال " متخلين عن ماضيهم القوي الشكيمة الذي لا ينحني أمام الشدائد و الجبروت)ثم حينما يهيمن الضعف و الجبن (غدا القوم على استعداد للمضي إلى العدو و تقديم حريتهم هدية إليه . ولم يكن أيا منهم خائفا حياة العبودية).

ما أشبه الليلة بالبارحة. ما أشبه محنة العراق بما يسرده غوركي . في محنة قبيلة دانكو التي تتطابق مع حياتنا . كأنهما توأمان في حالات التداعي و الخنوع و كثرة الأعداء المحيطين بنا. وهيمنة غابة التوحش وتراجع المعنويات، في لحظات لم يتوفر الأمل في الخلاص ، فضلّ ذلك الشعب يستسلم لقدر العوامل القاهرة . ثم البحث عن راعٍ يرعى استسلامهم إلى منابع العبودية . وكل يتأتى من جراء الافتقار إلى رؤية ثاقبة و قيادة محنكة مقدامة لا تستسلم للقهر و الخنوع .

يقول غوركي في حكاية بطل هذه القبيلة ، أو الشعب المقهور المتقهقر نحو أعماق الغابة : (و طالما قال دانكو القوي البهي الطلعة الذي برز من بينهم : ـ إنكم لا تستطيعون أن تزيحوا الصخرة التي تعترض سبيلكم بمجرد التفكير ، إن الذين لا يعملون شيئاً لا يحققون شيئاً)

إن دانكو هو الوسيلة . هو الإنقاذ هو السعي إلى الخلاص . الخروج من هذا المأزق المميت .، بعقل شاب يحمل فكراً موهوبا ، يحمل فكراً خلاقاً فتياً مبدعاً لا يستسلم لقهر الظروف القاسية . إن دانكو هو الخلاص من العوائق. المقتحم لخطوط الخذلان و الإحجام .

ذلك ينطبق على محنة شعبنا . وعلى اللغو الفارغ الذي واكب قضيته لسبع سنوات عجاف . حيث ظل العراق يقدم الخسائر و التضحيات الجسيمة التي لا قرين لها، ويدفع قرابيناً لأله الموت و ليس سوى ذلك .(إن الذين لا يعملون شيئاً لا يحققون شيئاً).

هذا هو مبدأ غوركي الخلاق. لا يوجد خلاص ينزل صدفة بدون السعي إليه .

إن دانكو هو السعي إلى المبادرة الخلاّقة ، للخروج من هذا المأزق المميت . ألأعداء المحيطون بهم من كل الجهات و التعايش مع كثافة الغابة و ظلامها كثافة الخنوع و قسوة

السموم و مستنقع الغابة، التي هي استسلام للموت البطيء المهين . تكتظ الغابة الشرسة الموحشة العدوّة ، التي تنبذ المستسلمين للضعف. فواصلت حجب الرؤيا عنهم . رؤية أي أمل للخلاص . و تحاصرهم يوماً بعد يوم . وتنبعث السموم من مستنقعها و أرضها الغدقة . وكان عليهم أن يلبوا نداء دانكو لكي يقودهم إلى النور، باختراق الغابة الدامسة الظلام .نحو الشمس و نحو عالم شاسع. عالم المضي بعيداً عن الإخفاق و الإذعان.

إن دانكو يعرف جسامة المسؤولية، و يعرف الثمن الباهظ الذي ينبغي أن يدفعه . و معرفته هذه متأتية من كونه لا يوجد مخرج آخر لشعبه إلاّ بالتضحية إلى حد النفس .

(وهكذا قادهم دانكو و تبعوه كلهم كرجل واحد . كانت الطريق شاقة . كان الظلام يخيّم عليهم . و عند كل خطوة يفتح المستنقع معدته الشرهة العفنة ليلتهم الرجال . واعترضت الرجال مثل جدار صلب ، و قد تشابكت أغصانها . و امتدت جذورها كأنها الأفاعي . كانت كل خطوة تكلف هؤلاء القوم الكثير من العرق و الدماء

لقد ناضلوا فترة طويلة من أجل الخروج من تلك الغابة. و لكن الغابة تزداد كثافة كلما تقدموا فيها .و كانت قواهم آخذة في الاضمحلال) . (و هكذا نقموا على دانكو ، و أنحوا عليه باللوم قائلين : بأنه شاب غُرْ تعوزه التجارب و أنه لا يعرف أين يقودهم . و لكنه سار في طليعتهم مطمئن النفس طلق الأسارير .و ذات يوم انفجرت فوق الغابة ريح عاتية و تهامست الأشجار تهامساً مشؤوماً ينذر بشر مستطير . وأظلمت الغابة إلى درجة خيلت للناظر، إن جميع الليالي التي مضت منذ نشوئها قد اجتمعت الآن في هذا المكان الواحد. ووسط دندنة العاصفة الرعب شق هؤلاء الناس الصغار طريقهم عبر عمالقة الأشجار، وتقدموا، وتقدموا . وصرّت الشجرات الجبارة المترنحة وهمست مغضبة ، فيما كان الومض يومض فوق رؤوسها. وذُعر القوم. لقد بدت الأشجار، وقد أضاءها وميض البرق البارد، وكأنها كائنات حية تسعى في خفة و رشاقة ، وكأنها تمد أذرعها الطويلة، ذات العقد، لتتداخل ، شبكة محكمة النسيج حولهم ـ لكي تصدهم عن سبيلهم، وتحول بينهم و بين الفرار من أسرهم المظلم) .

(و توقفوا وسط أصوات الغابات المشؤومة. وسط الظلمة المرتعدة، متعبين غاضبين، وعنّفوا دانكو قائلين:

ـ أنت أيها الرجل الشقي الحقير سبب ما نلاقي من بلاء ! لقد قدتنا في هذا السبيل فأهلكتنا و لسوف تموت الآن جراء ما صنعت !

فصاح دانكو، مواجهاً إياهم في اعتزاز :

ـ أنتم قلتم قدنا ! فتوليت قيادتكم ! إن عندي الجرأة لأن أقود ، ومن أجل ذلك قدتكم! و لكن أنتم؟ ما الذي عملتموه لكي تساعدوا أنفسكم ؟ لقد قنعتم بالمسير، ولم توفقوا في الاحتفاظ بقواكم لرحلة طويلة. لقد سرتم ، وسرتم ،ليس غير ، مثل قطيع من الخراف !)

ولكن هذه الكلمات لم تزدهم إلاّ غضباً، فصاحوا :

ـ سوف تموت ، سوف تموت !)

(فوقفوا يقظين، مثل الذآب ، منتظرين أن يبدأهم هو بالهجوم . وأحاطوا به من كل جانب ، لكي يكون في ميسورهم أن يقبضوا عليه و يقتلوه . و حزر هو أفكارهم . فإذا بالنار تشتدفي فؤاده ضراماً. ذلك بأن أفكارهم أحزنته) .

(وواصلت الغابة أُغنيتها الجنائزية الفاجعة. وزأر الرعد :و هطل المطر غزيراً مدراراً.

و صاح دانكو في صوت طغي على هزيم الرعد :

ـ مالذي أستطيع أن أفعله من أجل هؤلاء الناس ؟) .

(وفجأة أنشب أظفاره في صدره ، فشقّه واقتلع قلبه من موضعه و رفعه عالياً فوق رأسه و صاح دانكو مندفعاً إلى أمام، مشيراً إلى الطريق بقلبه المشتعل : ـ فلنمضي

هذه هي ساعات التعامل الحكيم الجريء الذي لا تأسره الإخفاقات و الوهن و أنه يمر بمنعطف حرج يحتاج إلى الجرأة والحسم و احتواء التردد لصالح الخلاص و تحويله إلى انتصار .

إنهم في مسيرة غير اعتيادية بدؤوها مندفعين إلى أمام يحدوهم النجاح في حسمها .

وتدافعوا خلفه كأنهم مسحورون . همهمت الغابة كرة أُخرى . وترنحت الأشجار في دهش . ولكن غلب على هذه الضجة كلها وقع أقدام القوم وهم يَعْدون . لقد عدوا كلهم في سرعة و جدارة يشدّهم مشهد القلب المشتعل العجيب . ومات عدد من الناس هذه المرة أيضاً. ولكنهم ماتوا من دون شكوى أو دموع .

و كان دانكو لا يزال في الطليعة و قلبه يشتعل و يشتعل .

و فجأة انفتحت الغابة في وجههم و قادتهم إلى الخارج . و تخلفت هي وراءهم كئيبة صامتة) .

من الواضح أن مكسيم غوركي أراد أن يعلن: أن لا يوجد مستحيل أمام الإصرار و الإقدام على تخطي الأخطار نحو الانفراج . و لكن هذا التحدي يحتاج إلى تضحية غير اعتيادية :

(خاض دانكو و القوم أجمعون بحراً من أشعة الشمس و الهواء النقي الذي طهّره المطر و صفّاه . و عصفت الريح خلفهم فوق الغابة و لكن الشمس أشرقت هنا و ارتفع السهب و كأنه يتنفس) .

هكذا يرسم لنا غوركي الهزيمة الماحقة التي لحقت بغابة الظلام ـ قوى الظلام ـ و قهرها بكل إصرار، إلى حد التضحية و الإنتصار عليها و الوصول إلى عالم الضوء الباهر ، وانفراج المحنة .

(و كان النهر يعكس أشعة الشمس الغاربة ، فهو يبدو أحمر مثل ذلك الدم الذي جرى جدولاً حارّاً من صدر دانكو الممزق . و أنعم دانكو النظر فخوراً شجاعاً في السهب العريض المنبسط أمامه . لقد حدّق في ابتهاج إلى الأرض الحرة و ضحك و كان الزهو يَرِنّ آنذاك ثم خرّ على الأرض و مات) .

وإذ كانت البهجة تغمر قلوب القوم ، و الأمل يعمر نفوسهم فلم يروا أنه مات ، و لم يروا أن قلبه الشجاع كان لا يزال يضطرم إلى جانب جسده الميت . إن واحدا منهم ليس غير . واحداً أدق ملاحظة من سائر القوم ، رأى ذلك . وإذ هزّه الخوف فقد داس على القلب الفخور ... و تفجر القلب شرارات ثم انطفأ) .

هذا هو دانكو الذي لم يكن بطلاً لحكاية مكسيم غوركي و لشعبه فحسب ، بل لكل الشعوب و منها شعبنا .التي هي بحاجة إلى بطل يجد استشهاده إدامة لحياته في خلاص و سعادة شعبه.

واني لأرى دانكو العراق يتحين اللحظة الحرجة ليعلن أنه جاهز لكي ينير الدرب بقلبه المضيء و يهتف بشعبه :

ـ إلى أمام ...